

"فن الحفر من أقدم الفنون التي عرفتتها حضارة وادي الرافدين، ومارسه فنانون العراق القديم منذ ما يزيد عن ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد. ففي هذا الوادي ظهرت أول المحفورات في الحجر والنحاس والذهب، وتجلت في الأختام الأسطوانية أو الصقائح المعدنية المكتوبة بالخط المسماري. وتعتبر الأختام الأسطوانية عملا فنيا راقيا، على الرغم من طابعا الوظيفي المباشر. ففيها يجتمع الرسم والحفر والطباعة (على الطين) وهذه صفات أساسية لفن الجرافيك، وما الفرق بينهما إلا المادة، فهذه فهذه على الورق وتلك على الطين. لقد حفر العراقيون القدماء الأشكال الإنسانية والحيوانية والنباتية بدقة متناهية، على الرغم من صغر حجم الاسطوانة أحيانا، بل إنهم أتقنوا النسب في تصوير شكل الإنسان أو الحيوان وخاصة الخيول والغزلان. وفي متحف اللوفر بباريس نماذج رائعة من هذه الأعمال، كما توجد نماذج مماثلة في متاحف عالمية أخرى. كانت تلك بداية فن الحفر، الذي ظهر فيما بعد في حضارات أخرى ليخدم وظائف وأشكال مختلفة. وما يهمنا الآن، كيف انتقلت هذه التقنيات عبر العصور لتعود ألينا بأشكال وصيغ ومواد، من مصادر مختلفة. لتشكل ما يدعى اليوم فن الجرافيك العراقي.

هناك من يؤمن بأن التاريخ يستمر ويتواصل في روح الإنسان ووجدانه مهما انقطعت سبل التواصل المعرفي، وتماهت الحضارات فيما بينها. فاذاكرة البصرية تنتقل من عصر إلى آخر، ومن جيل إلى آخر دون أن تفقد أسسها وجذورها كليا. وإلا فما سبب ولع الرسامين العراقيين بالحفر، سواء في لوحاتهم المرسومة أو لوحاتهم المطبوعة؟ ألا أنهم اتبعوا ما شاهدوه بكثرة من آثار الأسلاف هنا وهناك، أم أن الحفر له مدلول روحي في وجدانهم الجمعي، أم أنه دليل على رغبتهم في ترك أثر عميق لكل ما ينجزون من أدب وفن؟ ربما كل هذا أو بعضه، هو ما أيقظ فيهم الرغبة ثانية عندما تعرفوا من جديد إلى فن الحفر والطباعة (الجرافيك)".

في نهاية الثلاثينات وبداية الأربعينات من هذا القرن، كانت نخبة من الفنانين العراقيين الشباب، يدرسون الرسم والنحت في باريس ولندن وروما، ومنهم أكرم شكري وفائق حسن وحافظ الدروبي وجواد سليم وعطا صبري، ومن ثم بهجت عبوش وإسماعيل الشихلي وخالد الجادر وحמיד المحل، وجميل حمودي، ومن خلال دروسهم الأكاديمية تعرفوا على فن الحفر ومارسوه، لكنه لم يكن بأهمية الرسم والنحت اللذين ذهبوا من أجلهما، باستثناء بهجت عبوش الذي واطب على ممارسة الحفر على الخشب وهو في العراق. لقد كان هذا الجيل من الفنانين المؤسسين، واعيا لدور فن الجرافيك في الدراسة الفنية، وكان معظمهم أساتذة للفن في معهد الفنون الجميلة، وما أن تولى خالد الجادر عمادة المعهد عام ١٩٥٩ حتى سارع للتعاقد مع فنان بولوني معروف هو رومان ارتوموفسكي باستقدام مكسبين، أحدهما لطباعة الزنك والنحاس، والآخر للطباعة الحجرية (ليثوغراف)، والتي شكلت فيما بعد نواة مشغل صغير لفن الجرافيك في أكاديمية الفنون الجميلة بعد أن تأسست عام ١٩٦٢، ومن أبرز طلبة ارتوموفسكي في الأكاديمية كان كل من هاشم سمرجي وسالم الدباغ ويحيى الشيخ ومهدي مطشر ومحمود علي.

يعتبر عام ١٩٦٥ عاما مهما وحاسما في تاريخ الفن العراقي المعاصر، لأسباب ربما من أهمها عودة عدد كبير من الذين أنهوا دراساتهم خارج العراق، محملين بأفكار والأساليب والتقنيات الجديدة، فأقاموا المعارض الشخصية والجماعية، مبشرين بصفحة جديدة من الحداثة والمعاصرة، وداعمين لاتجاه كان قد تبناه أساتذة الأكاديمية، وبالتخصيص اليوغسلافي لازسكي والبولوني ارتوموفسكي، بل إن الأخير وجدها فرصة مناسبة، ليقم لطلابه معرضا كبيرا لأعمال الطباعة على قاعة (المتحف الوطني للفن الحديث)، وأدى نجاحه لان ينتقل إلى برلين (الشرقية) ويعرض في قاعة (المتحف الوطني للفنون) فيها، ويعتبر أول معرض لفن الجرافيك العراقي في الخارج. وقبل ذلك، وبالتحديد في أواخر عام ١٩٦٣ عاد رافع الناصري إلى بغداد يحمل شهادة تخصص في فن الجرافيك حصل عليها من (الأكاديمية المركزية للفنون) في بكين. وعاد بعده، عام ١٩٦٤ غالب ناهي متخرجا في (أكاديمية الفنون) في روما.

وفي عام ١٩٦٥ أيضا، أقيمت، و لأول مرة، ثلاثة معارض شخصية لفن الجرافيك في بغداد، فقد أقام كاظم حيدر المتخرج حديثا من (الكلية الملكية للفنون) في لندن، في (غاليري الواسطي) للمعماريين سعيد علي مظلوم وهنري زفبودا، معرضا تضمن أعمالا طباعية لليثوغراف والمونوتايب. وأقام محمد مهر الدين، الذي أنهى دراسته في أكاديمية وارشو للفنون، معرضا لأعماله الطباعية في (غاليري أيا) للمعماري رفعت الجادرجي، كما أقام رافع الناصري معرضا شخصيا على قاعة (المركز الثقافي التشيكوسلوفاكي)، عرض فيه أعمالا طباعية للحفر على الخشب، وخاصة المطبوعة بالألوان المائية التي كان قد تعلمها في الصين.

في عام ١٩٦٧ منحت (مؤسسة كالوست كولبنكيان) وهي مؤسسة ثقافية عالمية، وتتخذ من البرتغال مقرا لها، جمعية الفنانين العراقيين ثلاث زمالات لدراسة فن الجرافيك في (كرافورا) لشبونة، وكانت من نصيب كل من رافع الناصري وهاشم سمرجي وسالم الدباغ. وبعد عودتهم إلى بغداد عام ١٩٦٩ أقاموا ثلاثة معارض شخصية، فقد أقام سمرجي معرضه في (غاليري أيا)، والناصرى في قاعة (جمعية الفنانين العراقيين)، والدباغ في القاعة نفسها. واشترك الثلاثة بمعرض أقاموه صيف ذلك العام في بيروت في (غاليري واحد) للشاعر يوسف الخال، وقد صدر بمناسبة المعرض دليل أنيق صممه الفنان العراقي وضاح فارس، وكتب مقدمته الفنان السوداني احمد شيرين.

في بداية عقد السبعين عاد إلى بغداد، مجموعة من الجرافيكيين العراقيين (الحفارين)، وعرضوا أعمالهم الطباعية فيها، ومن أولهم يحيى الشيخ، الذي عاد من يوغسلافيا عام ١٩٧٢ حيث درس في (أكاديمية لوبليانا للفنون) وهي مدرسة معروفة بكفاءة أساندها من فناني الجرافيك، وأقام له معرضا شخصيا في قاعة المتحف الوطني للفن الحديث. ثم سامي حقي الذي أنهى دراسته في (كلية الفنون في دريسدن) بألمانيا، و أقام معرضا لأعماله الطباعية على قاعة المتحف الوطني أيضا. وفي عام ١٩٧٤ عاد فائق حسين من أسبانيا حيث اكمل دراسته في (مدرسة سان فرناندو) العريقة في أسبانيا، وأقام معرضا لأعماله الطباعية على قاعة المتحف الوطني للفن الحديث أثار إعجاب المشاهدين ومناقشاتهم، ثم عاد إلى أسبانيا ليقيم بشكل دائم.

في عام ١٩٧٤ تأسس قسم خاص لتدريس فن الجرافيك في معهد الفنون الجميلة، وتولى رئاسته رافع الناصري، وساهم في التدريس الأساتذة سالم الدباغ وسامي حقي وعلي طالب، الذي كان قد أنهى دراسته العليا في القاهرة. وقد كان لهذا القسم دور بارز في تهيئة الجيل الثاني من الجرافيكيين العراقيين، ومن أهمهم مازن سامي وعمار سلمان ومظهر أحمد ومدحت محمد علي وحמיד عبدالحسين وهناء مال الله وحيان عبد الجبار ويونس العزاوي ونديم محسن وسامر أسامة وكمال سلطان وسلام عمر وغيرهم.

وفي صيف عام ١٩٧٥ التحق ضياء العزاوي وصالح الجميبي بدورة لفن الجرافيك أشرف عليها الفنان الألماني المعروف أوتو ايغلاو، ضمن برنامج (الأكاديمية العالمية الصيفية) في سالزبورغ التي أسسها الفنان العالمي كوكشكا، وكان رافع الناصري قد شارك بهذه الدورات في صيف عام ١٩٧٤ و ١٩٧٥، على التوالي. ثم اشترك الثلاثة بمعرض أقاموه في قاعة المتحف الوطني للفن الحديث وعرضوا فيه ما أنتجوه في تلك الدورات. وقد استمر العزاوي منذ ذلك الحين في ممارسة الأعمال الطباعية (حفر على الزنك، طباعة حجرية، طباعة حريرية)، وهو من أكثر الفنانين العراقيين، إنتاجا للألبومات الفنية (بورتفوليو)، ومن أبرز زعماله (المعلقات السبعة) و (تحية إلى جواد سليم) و (الجواهري) وغيرها.

وشهد النصف الثاني من السبعينات، معارض متخصصة أخرى، من بينها معرض لمهدي مطشر المقيم في فرنسا، وكانت معظم الأعمال منقذة بالطباعة الحريرية (سلك سكرين). كما أقيم معرض آخر لارداش كاكافيان المقيم في فرنسا أيضا، وعرض

مجموعة من أعماله في الحفر على النحاس والطباعة الحجرية (ليثوغراف) ، وكذلك سعاد العطار المقيمة في لندن، التي عرضت أعمالها في (قاعة الرواق)، وتضمن مجموعة من الأعمال الطباعية المختلفة، وذلك عام ١٩٧٩.

وفي عام ١٩٧٨ استطاع ضياء العزاوي أن يلم شمل الجرافيكين العرب، في أول معرض من نوعه مخصص لفن الجرافيك،، رعاه المركز الثقافي العراقي في لندن، حيث عمل العزاوي مستشارا فنيا فيه، وأقيم المعرض على قاعة المركز في لندن، ثم انتقل إلى قاعة المتحف الوطني للفن الحديث في بغداد لاحقا، وجاء تحت عنوان (فن الجرافيك العربي المعاصر).

في عام ١٩٨٠، وبعد نجاح المعرض الأول، بادر المركز إلى تنظيم معرض دولي، أطلق عليه اسم (بينالي كرافيك العالم الثالث) على غرار البيناليات العالمية المتخصصة بفن الجرافيك، حيث خصصت له جوائز ولجنة تحكيمية دولية برئاسة الفنان العالمي المعروف روبيرتو ماتا. وقد أقيم المعرض أولا في قاعة المركز الثقافي العراقي في لندن، ثم انتقل إلى المتحف الوطني للفن الحديث بعد ذلك حيث وزعت الجوائز على الفائزين من مختلف دول العالم.

أما في عام ١٩٨٤ فقد اجتمع معظم الجرافيكين العراقيين في معرض طريف، هو معرض لوحات الجرافيك الصغيرة (منمنمات كرافيكية)، وكانت كل لوحات المعرض بقياس ١٠ * ١٠ سم، وأقيم في (غاليري الأورفلي) في المنصور، وعددها ١٢٠ لوحة، اختيرت ٣٥ لوحة منها للمشاركة في معرض دولي أقيم في سيئول (كوريا الجنوبية) عام ١٩٨٥.

لم تكن هذه المشاركة في المعارض الدولية هي الأولى والأخيرة، فقد شارك فنانون الجرافيك العراقيون قبل ذلك، ومنذ عام ١٩٦٥ في (معرض لايبزيك) بألمانيا، ثم في (البينالي العالمي الأول لفن الجرافيك) في لياج ببلجيكا عام ١٩٦٩، و (البينالي العالمي الأول في فريدريك شتاد) في النرويج عام ١٩٧٢، وبعدها في بيناليات عالمية أخرى في (كراكوف) ببولونيا و (لوبليانا) في يوغسلافيا و (براد فورد) بإنكلترا و (انتر كرافيك) في برلين و (برنو) في جيكوسلوفاكيا و (ترينالي مصر الدولي للجرافيك) في القاهرة وغيرها، ولازالوا على هذا النهج كلما سنحت فرصة المشاركة لأي منهم، وكان آخرها عشرة فنانين من العراق في (ترينالي النرويج العالمي للجرافيك) في فريدريك شتاد، والذي أفتتح في ٢٥ آب ١٩٩٩.

لقد بدأ الرسامون العراقيون منذ أوائل التسعينات بممارسة فن الجرافيك على نطاق واسع، بعد أن كان حكرًا على المتخصصين فقط، ومن أكثر المنتجين فيه إسماعيل فتاح ومحمد مهر الدين ومحمد علي شاكر وسعدي الكعبي وعلاء بشير وكريم رسن وهاشم حنون ونزار يحيى وغيرهم.

تلك هي أهم المحطات والإنجازات التاريخية التي حققها فن الجرافيك العراقي المعاصر خلال خمسين عاما من نشأته، والتي تضيء أعمال المعرض الذي تحتضنه داره الفنون - مؤسسة عبد الحميد شومان ضمن نشاطات برنامجها (صيف ٩٦) وهناك المزيد من التفاصيل والأحداث التي لم يسعني ذكرها لضيق المجال، عسى أن تدون مستقبلا.

رافع الناصري

عمّان / آب ١٩٩٩